كنهر ميت ..

قصة بقلم زكريا تامر

انتحبت امي طويلا ، فالذباب اكل عيني صبية نضرة كسنبلة خضراء ، وقال لي ابي بصوت فظ :

ـ طارق .. كف عن الابتسام .

والتفت الى انثى بؤسها سرق دموعها ، وقال :

ـ الن تبوحي باسم عشيقك ؟

وفي اليوم التالي مد الموت اذرعه الباردة ، واحتضن بشهوة جسد صبية نضرة كسنبلة خضراء ، وهمس ابي بلهجة حزينة :

ـ طارق .. كف عن الابتسام .. انت في مقبرة .

وحينما عدت من المقبرة ، وقفت في غرفتي ، وتطلعت في مرآة صغيرة مثبتة على الحائط بوضع مائل ، وتساءلت بصوت هازىء :

ـ هل هذا وجهي ؟

فوجهي الوديع الذي تلتصق عليه ابتسامة دائمة .. يثير غضب ابي ، فيصرخ بحنق : ليتك لم تولد .

فاقهقه مغتبطا .. وقهقه ابي مثلي عندما اخبره بعض اصحابي بانه قبض علي ليلا مع مومس في بستان.. وقال :

ـ انا سعيد جدا .. ولدي طارق لم يعد طفلا .. انه الان رجل .. اتمنى ان يصبح كالنهر .

النهر .. انه صديقي الذي احبه وارهبه في آن واحد.. فهديره متحد بانفاسي .. انه يسلبني طمأنينتي فتبدو لي المدينة بمخلوقاتها .. كتلة كبيرة متموجة باللحم والحجر.. اطل عليها من اعلى بشبق شبيه بالنهر الذي يكره التجمد في شكل معين .

واستندت بمرفقي على السور الحجري ، وثبت نظراتي على مياه النهر المتدفقة تحت ضياء نهار ناعم .. وقلت لنفسي :

ـ ليتني نهر .. ليتني بلا اب .. بلا مدينة .. بلا اسم .

اسمي طارق .. ولدت في ليلة مخنوقة بصيف حار .. مدينتي عتيقة جدا كنهرها الذي يخترقها من اولها الى اخرها .

وفي يوم ما قديم احرق رجل اسمه طارق السفن التي حملت جيوشه الى شاطىء ارض غريبة ، ثم خاطب رجاله قائلا بصوت مشدود الى طمأنينة مفزعة :

ـ البحر وراءكم .. والعدو امامكم .

ولا بد ان احد الجنود قد سمر آنذاك عينيه الهلعتين على سحب الدخان المتصاعدة من الحريق ، ثم ترك راسه يتهدل على صدره فبدا كمشنوق بلا حبل .

وفي يوم من الايام عشقت فتاة عيناها واسعتان زرقتهما صافية اجمل من اروع سماء ، ولم احاول في اية مرة ان ابوح لها بحبي الذي يعذبني ويشقيني انما اكتفيت بمراقبتها بوله حيثما كانت .. حتى اقبل ليل تعرى في ظلمته مخلوقان من اغلالهما الخفية ، وتلألأت اشواقي السجينة.

واشتريت في احدى الاماسي ديوان شعر بنقود لا املك سواها .. قرات قصائده الحزينة بحزن :

ماذا يشتهي الإنسان
ان ملك الذي قد يشتهيه
ماذا ؟ .. سوى القمر
الذي قد يشتهيه

وضحكت ببلادة اذ ان قمري مات جائعا في ليال ثلجها تساقط بغزارة .

وقلت لصديق ينظم قصائد كثيرة يأبى نشرها :

ـ انا احب نجمة لا اشتهي نوالها .

قال : انت مجنون .. النهر مازال حيا .. لن تجف مياهه .

قلت : انا احب نجمة ميتة .

قال : انت مجنون .

قلت : انا رماد .. سندباد جثة مشنوقة في فراغ المدن .

فقهقه بخشونة وقال : انا عنكبوت .

فقلت بأسى : انا غبار .

وانهمر الغبار بكثرة ، وتحجر في شكل حيوان جائع منذ قرون .. اطلق عواءه في اللحظة التي دخلت فيها جميلة بنت جيراننا الى منزلنا لزيارة امي المريضة التي لاتفارق سريرها منذ موت صبية نضرة كسنبلة خضراء .

وتمطى الحيوان الجائع بفرح عندما خرجت جميلة من غرفة امي لتملأ كوبا من الماء طلبته امي ، فسارعت الى تطويق خصرها بساعدي ، وتمسك فمي بشفتها الطرية فاخذت تغمغم في الفترات التي كنت اسمح لشفتيها ببعض الحرية :

ـ اتحبني اتحبني اتحبني ؟

قلت : انا احب نجمة زرقاء .

قالت : لاتمزح .. النجوم بعيدة جدا .. اتحبني اتحبني ؟

واغرورقت عينا صديق كنت اجلس في غرفته المضاءة

بنور اصفر خفيف .. انصت لعزفه الاسود على الكمان .. وقـــال :

ـ انا وحيد رغم حب زوجتي واطفالي واصدقائي وكل المسرات .. النهر يغني رغم كآبتي .. كآبة انسان جريح بعزلته الابديـــة .

فقلت بصوت اجوف :

ـ لا زوجة لي .. لا اطفال .. لا اصدقاء .. لا مسرات .. الارض مقبرة كبيرة .. النهر قد يكون تعسا مثلي .

وتطلعت برعب الى صرصار اسود يدب على البلاطات البيضاء ، وصرخ صديقي .

ـ لاتقتله .. ربما كان انسانا وحيدا ..

وارتعد جسدي حينما سمعت صوت انسحاق الصرصار تحت حذائي .. اوه... كنت الها قاسيا كذباب مدينتي الذي اكل عينين زرقاوين .. نبعي حنان تمتلكهما صبية نضرة كسنبلة خضراء . وفي شارع مقفر .. استولى علي خجل ممتزج بخوف عندما بصق في وجهي مخلـــوق لا اعرفه ـ ربما كان ابله ـ وقال :

ـ اقتلني ان شئت .. الم تغضب ؟

قلت : أتحب الموت الى هذه الدرجة ؟

قال : الموت شهي كأمراة ناضجة .

قلت : انتحر اذن .

قال : انا لا املك ثمن خنجر يميتني .. ليتني املـــك ثمن خنجـــر .

فأعطيته نقودا تكفي لتحقيق امنيته ، ثم سألته بينمـــا انا افكر بصبية نضرة كسنبلة خضراء .. انتحرت خلسة ذات ليلـــة :

ـ هل ستنتحر الان ؟

فضحك بمرح وقال : سأشتري الان خبزا ولحما وقنينة نبيذ .. الحياة جميلة .

فتركته ووقفت في زاوية الشارع ، واخذت اساوم امراة ازمعت شراء جسدها لمدة ساعة واحدة فقط .

قالت : ثمني عشر ليرات .. ستدفعها سلفا .

قلت : هذا ثمن باهظ .. انا فقير .

قالت : انا فقيرة مثلك .

قلت : لن ادفع سوى خمس ليرات .

قالت : عمري عشرون سنة فقط .. جسدي اجمـــل بكثير من وجهي .

قلت : انا فقير .. عيناك ليستا زرقاوين .. لن ادفـــع سوى خمس ليـــرات .

قالت وهي تبتسم بخبث :

ـ ماذا ستفعل ان رفضت الذهاب معك .

فقلت : سأرجع الى غرفتي ، سأوصد بابها .. واتأمل صورة امراة جميلة عارية .

وهطلت الامطار فوقي ، فبكيت بذل ، وقلت بصـــوت مرتفـــع :

ـ اذار نيسان مايس .. الثلاثاء الاربعاء الخميس .. متى يتوقف هذا الركض المجنون ؟.. سأدفن يوما فـــي حفرة ، ويظل النهر حيا .. ليتني نهـــر .

واحزنتني للغاية رغبة حارة في البكاء شاهدتها متلألئة في عيني فتاة وجهها وديع كوجه اختي التي اكل ذبـــاب المدينة عينيها الزرقاوين اللتين هما أروع من اجمل سماء . اختي اختي يانجمتي المسكينة .. لااحد سيبكي لاجلي .

وعدت الى غرفتي ، وتمددت على فراشي ، وطفقـــت احملق بذهول في بياض السقف الباهت .. الجفـــاف موسيقاه الخشنةتقتحم كل المخابىء السرية .. واصوات النهر التي ترافقني على الدوام تضمحل بغتة .. هل مـــات النهر ؟.. اختي الصبية كسنبلة خضراء ... لماذا ماتت.. كانت تحبني .. هل كانت تحبني ؟.. لماذا ماتت .. لماذا؟. طارق لاتحرق سفنك .. لاتحرقها .. حقدي يتسلـــق صخور جبال موحشة .. الجراد يطفىء افراح الحقول.. النهر ميت .. تمزق القناع .. هذا وجهي .. انا ذبـــاب المدينة .. النهر ذو الشفاه القاتمة التي غمر لهيبها الشرس صبية نائمة جسدها اوقظ شمسا مجنونة ركضت فـــي شوارع الدم المرتعـــد . القمر المتبسم خلف زجاج النافذة .... شاهد وحده جســـدي ينزلـــق فـــي الجســـد الاخر .. همست الصبية بذعر : لا ... ضحكت بارتبـــاك ضحكت بنشوة . قبلتني بخجل لم يعش سوى لحظات . انها تحبني . بكت بمرارة . انها تكرهني . هل قبلتني ؟. ماتت لانها تكرهني.. لماذا ماتت ؟ .. اوه .. السفن ... انها تحترق .. انا خائف .. سمرت عيني الهلعتين على سحب الدخان المتصاعدة من الحريق ، ثم تركت راســـي يتهدل على صدري بذل وانكسار .. ليس لك ابة مدينـــة ياطارق .. احترقت السفن ..

دمشق — زكريا تامر

« من جمعية الادباء العرب »

« مجموعات » الآداب

لدى الإدارة عدد محدود من مجموعات السنوات الست الاولى من الآداب تباع كما يلي

		مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ل.ل	١٠٠ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «